

يحدث الآن

20:58

أردوغان: القوات المسلحة التركية ستقوم بتطهير نفسها من الانقلابيين وتنظيم صفوفها من جديد

20:58

أردوغان: لن نطلب إننا من أحد من أجل محاكمة المتورطين في الانقلاب الفاشل

20:57

الوكالة الوطنية: الجيش يقصف بشكل عنيف مواقع للمسلحين في جردو رأس بعلبك ووادي رافق لبنان

20:56

أردوغان: خروج الشعب إلى الشوارع أجهض محاولة الانقلاب تركيا

20:55

أردوغان: فتح الله غولن متورط في محاولة الانقلاب في تركيا

المزيد

الصفحة الأولى

شؤون لبنانية

مخافر و محاكم

بزنس

المستقبل الإقتصادي

شؤون عربية و دولية

رأي و فكر

ثقافة و فنون

رياضة

الصفحة الأخيرة

تحت سماء برلين.. مع جان أرب وأشباح أخرى



شذا شرف الدين

لم أولد في ستراسبورغ ولا في ثقب ولا في تنورة ولا في مضخة. وُلدتُ على غيمة. في يوم كانت السماء فيه زرقاء فيروزية، وجدتني على غيمة ركامية بيضاء داكنة، طرية، وناعمة... كانت مريحة للغاية، أرى منها شارع بيرلبرغ حيث السيارات تمر مسرعة متجهة جميعها شرقاً غير عابئة بالغيوم التي تسقط ظلها بخفة عليها. إنه الخريف، هو نفسه. رحيم هذه المرة. فالعصافير ما زالت تزج بزعيها أرجاء المدينة كما شجرة الكستناء المجاورة لشباك غرفتي. أراقب لامبالاة العصافير وهي تقتحم الشجرة عادة من رحلة صيدها لفتات الخبز وبقايا النفايات من ساحة العمارة الخلفية. وبينما يتصاعد ضجيجها، ألمحها تخرج من بين الأغصان الكثيفة، ضاربة إياها بأجنحتها السليطة، زاعقة بملء حناجرها، جاعلة الشجرة ترتج فاقدة سكونها وسيادتها لبرهة غير محددة، معلنة بذلك عن رحيل مؤقت، ينتهي عند التهامها دفعة تالية من فئات القمامة من جديد. فُكرت، لا بد أن شجرة الكستناء تفرح عندما يأتي الخريف، فيحرق أوراقها مسقطاً إياها أرضاً، محرراً أغصانها من تسلط الطيور عليها واجتياحاتها المفاجئة... أحسب أن شجرة الكستناء تبتهج لمجيء الخريف.

إنه الحادي عشر من تشرين الأول لعام ألفين وخمسة. ككل صباح، أنتظر انتهاء الماكينة من إعداد القهوة، لا أنتظر مجيء أحد أو حدوث شيء. أقول سوف أذهب الوقت أشياء يدونها في فضاء لا بد أن يمتلئ يوماً فينطفئ. لكنني يومياً، وبالحماس عينه، أنتظر طلوع الضوء، فهدير السيارات الذي ينقله الهواء إلى غرفتي، وأكتفي بهما كدليل لبداية يوم جديد، موقنة بأن "ناومان" العجوز، جارتني، سوف تزلق مرتبة روزنامتها الأحمر نحو الرقم اللاحق...

الانتظار أقوى من النوم. مساءً سوف أصارعه بقوة. إلى حينه، أشعل سيجارة. على الطاولة صور كثيرة، أوراق فارغة، أقلام، وظل نيتشه يهمس في أذني "هذا هو الخريف، هو... سوف يكسر قلبك... طر بعيداً، طر بعيداً. الشمس تتسلل إلى الجبل، تصعد وتصدر، ومع كل خطوة تزداد سكوناً...".

في المترو، أقرأ في أغلب الأحيان. لا لأن وقت التنقل وقت ضائع، بل لأن جلوسي هو كمن يجلس في صالون مشاركاً أشخاصاً لا يعرفهم المقعد نفسه. خصوصاً حين تلامس أطراف أجسادنا بعضها عن غير قصد. أقرأ أيضاً لتجنب نظرات الآخرين البيضاء أو تلك المليئة بالأسئلة، إذ كلاهما تبقى غالباً عالقة على أزرار سترتي وداخل أكمامي.

في المترو أحاول أن لا أقرأ كتاباً باللغة العربية. من المقعد الخلفي تتسرب إلى أذني لهجة بلدي. شابان يتكلمان عن فتاة استلمت لتوها "المادة". توقف المترو، أراهما يتأهبان للزول ثم يتجهان نحو رجل نحيل يصعب تحديد عمره. تبادلوا الأيدي. بقيت يد كلٍ منهم عالقة في جيب الآخر، استادروا، ورحلوا..

لم أولد في ستراسبورغ ولا في ثقب ولا في تنورة، ولا في غيمة. ولدت في مضخة، فذفتني عند سفح جبل الصليب، كرويتسبرغ، موطن المكاس الأثرية والأسماك الضائعة الممددة على الأرصفة وتحت الجسور وبالقرب من قممات المحطة... سمك كثير في كرويتسبرغ هو أيضاً بلا ذاكرة تقريباً. تجده يحرق في الواجهات وينتظر أن يخرج ثمة نبي مُنتظر. هو يشبه تماماً ذلك الذي في بلدي. بل هذا هو، ببحره وخيماته وعباءته وأكياسه...

أنا، لم أولد في ستراسبورغ...

لم أولد في ستراسبورغ ولا في مضخة ولا في تنورة. ولدت في ثقب اسمه ساحة ألكسندر، حيث السماء مليدة بغيوم "نمبوس" المثقلة بسوداها. تحسبها جامدة تهدد بانفجار مياهها في كل لحظة. في ساحة ألكسندر الشباب يبدون شيوخاً والشيوخ أمواتاً، لن ترى فيها أطفالاً فئسواها عاقرات ورجالها بلا أسنان وفي حدقاتهم تمارى أحذيتهم المتهرئة وزجاج قنانيهم الأخضر... هم أيضاً ينتظرون. ربما أن يحدث زلزل، أن ترعد السماء، أن تنهمر الأمطار لتغسل رائحة البول عن جواربهم والصمغ عن أفواههم. لكن ها هي السماء ترعد ولا أحد يبالي في ساحة ألكسندر. الثلج وحده يجعل رؤية البيوت الحزينة محتملة...

أتملس المطر على خدي ومنبت شعري وأتذكر الرجل الذي كان يوماً مسيحي المُنتظر. له أخط يوماً قميصاً حريرياً أخضر، ولما لم يعجبه، رمى به، قبل أن أخطب أزراره في نار المدفئة. الأزرار الخضراء، هي، بقيت في علبتي.

لي صديقة اسمها سولفايغ، طريق الشمس. وهي كما سولفايغ إبسن، لا تزال تنتظر عودة بر غنت، الذي حين عاد، كانت قد فقدت بصرها. قلت لها مراراً أن لا جدوى من انتظاره. لكن سولفايغ لا تصدقني، بل تذهب بانتظام إلى منجمة كي تنظر لها في بلورتها عن محطات مكوثه. أما أنا فأكرّر محاولة إقناعها بعدم جدوى انتظاره في كل مرة أراها.



... ثم هناك الأفاعي الزرقاء تنتظرنني، ما أن يحلّ المساء على برلين... أحاول مقاومتها حتى آخر ومضة من جفني.

حين يحلّ الصباح أخطّ دوائر في دفترتي، أوهب الوقت أشياء يدونها في فضاء لا بدّ أن يمتلئ يوماً فينطفئ...

من بعيد أنتظر سحابة "السيروس" العالية، وأقول لو أن السماء تمطر لمرة واحدة شيئاً غير الماء...

تحت سماء برلين، كثيراً ما نتكلم مع الموتى. كثيراً ما ننتظر.

- "ولدت في الطبيعة. ولدت في ستراسبورغ. ولدت في غيمة. ولدت في مضخة. ولدت في تنورة".

مطلع قصيدة لهانس جان آرب.

شذا شرف الدين

تشرين الأول 2005

نوافذ

الأكثر قراءة في « نوافذ »



الشركة العربية المتحدة للصحافة - جريدة المستقبل - شارع سببوز - بيروت - لبنان - هاتف: 961-1-746301 - فاكس: 961-1-746312